بيني وبينك الماء

عبد الرحيم كنوان

«إلى شهيدة بغداد ليلىٰ العطّار»

هذا دَمِي
وسَحَبْتُ نِصْفَ تَذَكُّرِي مِنْ سُنْبُلَهْ
الضَّوءُ صَالَحَنِي
فماذا لاضْطراب البَحْرِ
والإمساء وَقْتَ الأَخْيِلَهْ

وأُهادِنُ الإصباح مِثْلَ الدَّوحِ . .
مِثْلَ اللَّوحِ أَكْتُبُ صَحْوَتي
وأنا بِحُبْرِ البَوْحِ أكتب . .
أكتب الشَّفَقَ الأَخيرْ
وأعُودُ في أَبَدِ المكانِ قرنْفُلَهْ
عادَ التَّوَحُّدُ لا تَوَحُّدَ
وٱنتهىٰ الإمكان فيه
وٱخْتَلَقْنا ٱلْجلْجلَهْ
بيْني وبيْنَ الصُّبحِ هذا الإنشطار
و«غزَّة» الحبلىٰ بماءٍ
وٱنفجارُ ٱلْقُنْبُلَهْ
عادتْ «أريحا»
اقْطِفُوا بَلُّوطَها
ها الانبطاح نأىٰ بِصَوْتٍ
وٱقْتَرَبْنَا
وٱنْتَأىٰ التَّسْجيل بالإصباح
مَا ٱبْتَعَدَ الفُراتُ بِخَلْخَلَهْ
هُوَذَا غَدُ الأشلاءِ والأشياءِ
لا بيْنَ التَّبَيُّنِ يَنْتَهي
أَلزَّهْرُ مُفْتَتَحُ السُّؤالِ

ولا تبيُّنَ في إداناتِ السُّؤالِ
ولاصْفِرَارِ الموج عِبْء الإبْتِدَاءِ
ولِلْمَسَافَاتِ ٱشْتِعَال الأسْئِلَهْ
خُذْ أيُّها الوقتُ ٱشْتِعَالَكَ
خُذْ ركودَكَ
خُذْ لِسَانَكَ
قُلْ لِلَيْلىٰ: هَا الرُّؤىٰ ٱنْشَطَرَتْ
فَمَنْ يَصْهَىٰ الدَّوِيُّ بِفِيهِ كَيْ يَلْقَاكِ
أيَّتُها الحَبِيبَةُ في ٱنبلاجِ الضَّوْءِ بالأفْلاكِ
هذا الموتُ مفتاحُ الشَّخيرِ
وهذه الأتراحُ مُفْتَتَحُ الدَّليلْ
بَيْني وبَيْنَكِ
هَا الرَّفيق هُوَ ٱلْقَتِيلْ
بَيْني وَبَيْنَكِ سُدْفَةُ ٱلْمُلاَّكِ
وَٱلْمَوْلَىٰ وخَفْق الانتظارِ
وذا ٱلْهَزيز مع ٱلْهَزِيمِ
وذا ٱلْقَرير مَعَ الغُيومِ

وَأنْتِ يا ليْلَىٰ لِهَفْهَفَةِ الصَّهيلْ
ٱلبُرْتُقَالُ تَدَلَّتِ الزَّفَرَاتُ مِنْهُ
وَشاخَ عُبَّادُ البَلاطِ
وما دَحَا الويلُ ٱلْفَراغَ وما دَحَا
ما حَرَّكَ ٱلْوَرَقُ ٱلْحَسِيسَ
وَمَا صَحَا
بيْني وبيْنَكِ هذه الأصْدَاءُ
في سَعَفِ النَّخِيلْ

يَنْتَابُنا عُرْيُ الرَّوَاحِ
لِتَدْخُلِي يا أرضُ خَشْخَشَةَ القَصِيدْ
وَلِتَنْفُثِي الشَّبَقَ ٱلْجَدِيدْ
قد عادَ لِلْحِيْنِ ٱلْوَلِيُّ
وما أعَادَ ٱلْحِيْنُ جَلْجَلَةَ ٱلْوَلِيدْ
سَبَقَ ٱنْخِفَاض ٱلْغَيْمِ
حُرَّاس التَّقَادُمِ
أيُّها الأطفال مُرُّواْ
قَرِّبُواْ الشَّجَرَ ٱلْبَعيدْ
لا نَوْمَ كَيْ نُلْقىٰ لِضوءِ الانتظارِ
ولا ضُحَىٰ لِتَلاطُمِ الأمواجِ
تَنْبَلِجُ التَّفَاصِيل البعيدة
أيُّها المحمولُ فيها
خَبِّرَتْنِي أُلْفَةُ التَّذْبِيحِ
مَنْ يَصْحُو؟
وَخَبِّرَنِي أمامَ البابِ وَشْمُكَ
ثُمَّ مَنْ يَصْحُو؟
وَهَلْ خَبَّرْتَ مَنْ يَأْتِي؟
فَخَبِّرْنِي أنا تَحْتِي
وهذا الفجْرُ مُحْتَمِلٌ بِمَنْ حَمَلُوا
وهذا الرَّعْدُ مُقْتَبِلٌ بِمَنْ قَتَلُوا
هنا يتموَّج الممزوج فينا بالشّساعةِ
ما تَهَجَّيْنَا ظلال النَّخْلِ
ما عَادَتْ برامج يَوْمِنا لِلشِّيحِ
ما عَاثَتْ سنابِلُ أرْضِنا بالرِّيحِ

←

ما فَرَّ الوَلِيدُ بِرَوْضَةِ ٱلْعُصْفُورِ
قُلْ لِلشَّمْسِ: ها لَيْلَىٰ تَصِيحُ..
وَتَنْهَضُ الأَوصافُ
تُخْرِجُ حِبْرَهَا لِلنَّاطِحَاتِ
وها أنا والماء والأشياء نشْدُو
قُلْ لها: بيْنِي ودِجْلَةَ لَحْظَةُ التَّخْلِيصِ
والدَّفْقُ ٱلْفُرَاتِيُّ ٱلصَّمُوتُ
وَتُزْهِرُ الأَصْوَاتُ
أَصْفَعُ غَيْمَةً
وتقُودنِي النَّسَمَاتُ..

والألْحانُ
ها ٱلأَنْغَام تَحْرِقُنِي
وَتَشْتَعِلُ المَدَائِنُ بِالثُّلُوجِ
وها الطّقوس تآكَلَتْ
وٱعْتَادَها الجُدْرانُ
يا لَيْلَىٰ لِهَمْهَمَةِ الصَّهِيلِ
أَقَمْحُنَا ٱلْعَرَبِيّ..
يَنْتَظِرُ ٱنْطِفَائِي في ٱلتَّوَهُّجِ
وٱنْبِطَاحِ النِّيْلِ..
ما بَيْنَ الشَّساعةِ وَٱلْقَتِيْلِ؟

وها أنا التَّبْخِيرُ في وَطَنِ التَّبَخُّرِ
هَلْ سَمِعْتِ حِجَارَتِي
كَيْ أُصْبِحَ التَّبْخِير..
أو أَبْقىٰ بَخُوراً في «وَلِيلِي»[1]؟
ها صَدَىٰ التَّاريخ يَا لَيْلَىٰ مَطَرْ

المغرب

(١) «وَلِيلِي»: مدينة قديمة من أهمّ المآثر التاريخيّة في المغرب، بناها الرُّومان، وتُسَمَّى أيضاً «قصر فرعون».